

الكشاف

وروى أنه بقي ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بد منه ولا يرقأ دمه حتى نبت العشب من دمه إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع وجهه نفسه راغبا إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له : إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه واجتمع إليه أهل الزيف من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه . وروى أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها . وقيل : إن الخصمين كانا من الإنس وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما : إما كانا خليطين في الغنم وإما كان أحدهما موسرا وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري والثاني : معسرا ماله إلا امرأة واحدة فاستنزله عنها وإنما فرع لدخولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسأله . " يداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " " خليفة في الأرض " أي : استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها . ومنه قولهم : خلفاء الله في أرضه . أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق . وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير " فاحكم بين الناس بالحق " أي بحكم الله تعالى إذ كنت خليفته " ولا تتبع " هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا " فيضلك " الهوى فيكون سببا لضلالك " عن سبيل الله " عن دلائله التي نصبها في العقول وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها و " يوم الحساب " متعلق بنسوا أي : بنسيانهم يوم الحساب أو بقوله لهم أي : لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله . وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري : هل سمعت ما بلغنا ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية . فقال : يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟ ثم تلا هذه الآية . " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار " " بطلا " أي خلقا باطلا لا لغرض صحيح وحكمة بالغة . أو مبطلين عابثين كقوله تعالى : " وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق " الدخان : 39 ، وتقديره : ذوي باطل أو عابثا فوضع باطلا موضعه كما وضعوا هنيئا موضع المصدر وهو صفة أي : ما خلقناهما وما بينهما للعب واللحاح المبين وهو أن خلقناها نفوسا أودعناها العقول والتميز ومنحناها التمكين وأرحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف

وأعدنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم . و " ذلك " إشارة إلى خلقها باطلا والظن :
بمعنى المظنون أي : خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا . فإن قلت : إذا كانوا
مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بدليل قوله : " ولئن سألتهم من خلق
السموات والأرض ليقولن الله " لقمان : 25 ، فبم جعلوا طائين أنه خلقها للعبث لا للحكمة .
قلت : لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل
جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأن الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من
رأسها فمن جده فقد جد الحكمة من أصلها ومن جد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق
وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره فكان إقراره بكونه خالقا كلا إقرار